

فى جوار البيت العتيق

إلى البيت الحرام نتجه فى صلاتنا . .
وفى أرض الحجاز نحس رابطة قوية : تستطيع أن تختصر الزمان
والمكان ، لتعود بنا إلى عهود النبوة والنماذج الإنسانية التى تهوى إليها
أفئدتنا .

إلى هذه الأرض سعى سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأسكن من ذريته
بواد غير ذى زرع . وفى منى تعرض الشيطان له ولزوجه المؤمنة هاجر
ولولده الصابر إسماعيل عليهم جميعاً السلام ، فثبتوا على الإيمان الذى
دعاهم إليه ربهم ، ورجموا الشيطان الذى منه حذرهم .

فى هذه الأرض سعى الرسول يعرض نفسه على القبائل فى أيام منى ،
فردده ردّاً غير جميل ، ومن ورائه نفر من قومه يصرفون الناس عنه ويرمون
الرسول بالحنون .

فى هذه الأرض استجاب الأنصار للرسول ، وشهدت هذه الصخور
لقاء المؤمنين وعهد الصادقين ، وكيف فتحت المدينة قلبها للرسول عليه
الصلاة والسلام .

هنا فى منى عقد الرسول بيعتى العقبة . وعاهده الأنصار على أن
يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . وسمع صوت العباس بن عبادة
الأنصارى يقول لقومه شارحاً مسئولية العمل للإسلام : أيا معشر الخزرج ،
هل تدرون علام تبائعون هذا الرجل؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبائعونه على
حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت

أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن . فوالله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذها على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه (١) .

ويدور الزمن دورته ويعود الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكة التي أخرجته . ويدخل المسجد الحرام يحطيم ما فيه من أصنام . ويعود البيت إلى ربه طاهراً . ويخطب الرسول في البيت الحرام كما يخطب بعد هذا في عرفات وفي منى ، داعياً إلى الإيمان بالله مؤكداً كرامة الإنسان والمساواة بين البشر .

تاريخ طويل عاشته هذه الأرض . وعبر كثيرة تستوقف الإنسان من مناسكها وشعائرها وأحداثها . وعند بعض هذه العبر من قصة إبراهيم وأسرته المؤتمنة نحاول الوقوف في هذا الحديث :

ولقد علمنا ربنا في كتابه فقال : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » [هود : ١٢٠]

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢ : ٨٨ - ٨٩ ط . الحلبي ، القاهرة .

١ - الإيمان

هناك أولاً الإيمان العميق الذي يملأ حياتها ويصوغ هذه الحياة ،
وتعتر الأسرة به فتناقله أجيالها ، ويوصى به الأب ولده وهو على فراش
الموت :

إبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ »

ثم يوصى إبراهيم بالإيمان بنيه ويعقوب : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »

ويذكر ربنا أمر يعقوب فيقول : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟

قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَهًا وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » [البقرة : ١٢٨ - ١٣٣]

٢ - العمل

الإيمان في حياة هذه الأسرة المباركة لم يكن سلبياً ، وإنما كان
إيماناً له تعبيراته العملية وإنجازاته ، وسلوكه الطريق الصعبة متى كان
في هذا مرضاة لله تبارك وتعالى :

- أمنا هاجر حين تسكن الوادى تبحث لولدها عن الماء ساعية بين الصفا والمروة حتى يفيض الماء من جوار الصبي .
- وإبراهيم وإسماعيل يرفعان معاً القواعد من البيت . .
- وإبراهيم من قبل هذا يعيش فى العراق ، ثم يخرج منه مهاجراً إلى ربه . ويسكن أرض الشام . ثم يخرج منها إلى مصر . ويعود إلى الشام . ثم يأمره ربه فيهاجر من الشام إلى مكة ، حيث يرفع قواعد البيت . ثم يعود من بعد هذا إلى الشام .
- فعامل الحركة بارز فى حياة الأسرة . وعامل الإنشاء فيها بارز أيضاً . ومع الحركة والإنشاء لسان يتحرك بالخير قائلاً : « ربنا تقبل منا » وقلب خاشع لله يترجم عنه قولهما : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .
- وكان من الممكن أن يتفجر الماء من زمزم قبل أن تسعى هاجر ، أو دون أن تسعى . . كما كان من الممكن أن تحيا هاجر وإسماعيل فى جنات الشام ، ولا يسكنان وادياً غير ذى زرع عند البيت المحرم .
- ولكن الإيمان لا بد له من تعبير عملى يؤكدده ، وهو كما علمنا نبينا عليه الصلاة والسلام : « ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .
- لا بد إذاً من هذه التجارب والامتحانات يمر بها الفرد والأسرة والأمة لتؤكد حقيقة إيمانها ومدى صلابته وامتناعه على الفتنة .
- وهذه التجارب العملية هى المحك الصادق الذى يثبت به الإيمان ، كما أن العمل فى ذاته — وهو تجسيد للإيمان — تشریف وتكریم للفرد الذى يعمل .
- ومن هنا تأتى مكانة العمل فى الإسلام وفى تاريخ الإنسانية عامة .
- وتبلغ قداسة العمل منزلة نراها فى قصة مريم حملت بعيسى

عليه السلام ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة : « قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا : أَلَّا تَحْزَنِي ، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا » .

[مریم : ٢٣ - ٢٥]

ففي هذا الموقف يأمرها ربها بأن تهز إليها يجذع النخلة . وماذا تستطيع مريم وهي في ألم المخاض أن تترك من أثر في جذع نخلة ؟ ولكن ، حتى في هذا الموقف ، لا بد من أخذ بالأسباب مهما كانت محدودة ، حتى يصل الإنسان إلى نتيجة . . مع أن الموقف كله كان إعجازاً في إعجاز .

بل إن الله تعالى يمن على الأنبياء أن وجههم إلى العمل وسبل الإنتاج :

فيذكر عن داود عليه السلام : « وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ »

[سبأ : ١٠] ، وقوله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ

لِتُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » [الأنبياء : ٨٠] .

وعن سليمان عليه السلام : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً

تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ

عَالِمِينَ » [الأنبياء : ٨١] .

ويعلم يوسف عليه السلام . إلى جانب تعبير الرؤيا ، سياسة عملية تنفذ مصر من خطر تهديدها ، فيستطيع أن يوازن بين الزراعة والتخزين والتوزيع . . . وإذا شئنا اصطلاحاً حديثاً قلنا إن يوسف استطاع أن يخطط سياسةوازن فيها بين الإنتاج والاستهلاك والادخار ، حتى جاء عام فيه من الله غوث ورحمة . .

وحياة موسى مليئة بالحركة بين مصر ومدين وسيناء ، عميقة بتجارب الكفاح ومقاومة انحرافات بني إسرائيل المتوالية .

وحياة عيسى كانت مليئة بنماذج من المقاومة لقيها من المستغلين في عصره ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، فلم يجدوا منه إلا الثبات على الحق : « فَأَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ، قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ » [آل عمران : ٥٢] .

العمل وقداسة العمل . . الجهد الإيجابي . . هو الدرس الثاني الذي نأخذه من قصة إبراهيم بعد درس الإيمان . . ولم تكن حياة إبراهيم وحدها كذلك ، وإنما هذا نهج حياة الأنبياء جميعاً ، ويجمعهم القرآن في باقة واحدة من قوله : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون » . [الأنبياء : ٩٢] .

ويوجهنا إلى اتباع ما جاءوا به من الهدى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ،

فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدُ
ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ » [الأنعام ٨٩ - ٩٠] .

٣ - تكامل العبادة

وهذا العمل يستغرق جوانب الحياة ، ونماذج القرآن شاهدة على ذلك ..
فقد رأينا في قصة البيت العتيق كيف استغرق رفع قواعد البيت
جوانب أربعة من حياة إبراهيم :

(أ) جانب العمل العقلي الذي يحدد به القواعد وأبعادها ويقوم
برفعها ،

(ب) الجهد اليدوي الذي يترجم الفكرة إلى إنشاء وعمل محسوس ،

(ح) القول الخالص لله : ربنا تقبل منا .

(د) القلب المشغول بالله : إنك أنت السميع العليم .

فالعمل هنا عبادة كاملة تشغل التفكير العقلي والجهد اليدوي والقول
باللسان واشتغال القلب بطاعة الله ، بحيث يكون الوجود الإنساني خالصاً
لوجه الله تعالى .

والحج - كعبادة - فيه هذه الجوانب جميعاً : فلا بد للحاج من
تنظيم سابق ، ينظم به المرء أمر نفسه ، وكفالة أهله من ورائه عند سفره ،
وما يلزمهم في أمر معاشهم ، ومن يحمل مسئولية البيت والعمل عند السفر .
ثم هو في الحج ، يعبد الله عبادة يتحرك فيها الإنسان طائفاً وساعياً
متوجهاً إلى عرفات ، مفيضاً إلى المشعر الحرام ، ثم إلى منى عائداً إلى
مكة .. ومع هذه الحركة الدائبة ، يرتفع صوته بالتلبية والتلهيل والتحميد
والتكبير ، تالياً كتاب ربه ، مصلياً على نبيه ، متجنباً قول الزور

والجدال ، وقلبه — فى هذا كله — يذكر ربه منيباً إليه ، يرجو رحمته ويخشى عذابه . .

بل إننا لو تأملنا سائر العبادات لوجدنا فيها هذه الطبيعة المتكاملة ، فالصلاة — مثلاً — عبادة تستغرق القلب واللسان والجوارح والفكر . وإذا ما كان هناك تكامل بين جوانب العبادات ، فهناك تكامل أيضاً بين العبادات والمعاملات والأخلاق فى الإنسان . وتبلغ آثار هذه العبادات ذروتها ، حين يستطيع المجتمع أن يعبر عنها فى حياته تعبيراً صادقاً ، بحيث تكون هذه الحياة متحركة نحو الأهداف التى رسمها ربنا لنا ، ودعانا إلى المجاهدة الدائمة ، لكى نجعلها حقائق حية ملموسة .

٤ — مفهوم العبادة

وللعبادة فى الإسلام مفهوم يشمل أى عمل يتجه به الإنسان إلى ربه مخلصاً . فالجهد المخلص الذى يبذله الفرد أو المجتمع فى سبيل الخير عبادة . وفى هذا الضوء نستطيع أن ندرك تلاقى الجهود المخلصة من أجل المصلحة العامة ، واعتبار هذا كله قربة إلى الله تعالى . ولناخذ لذلك أمثلة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

(أ) من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له (عن ابن عباس) .
(ب) من ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة كفرها (عن عقبة ابن عامر) .

(ج) من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه (عن أبي هريرة) .

(د) من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع (عن أنس) .
(هـ) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ،

لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً .
(عن أبي هريرة) .

(و) من رابط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صامها وقامها .
(عن عثمان) .

(ز) من رد عادية ماء أو عادية نار فله أجر شهيد . (عن علي) .

(ح) من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه . (عن سهل بن حنيف) (١) .

في هذه الأحاديث ترى صوراً متنوعة من الحياة تنتهي إلى هدف واحد هو رضا الله ورحمته . . نرى العامل في أي مجال من مجالات العمل : زراعة أو صناعة ، وقد أمضى يومه دائماً منتجاً ، فإذا ما فرغ من عمله وأدركه الليل ، غفر الله له بما بذل من جهد . وقد يكون هذا الجهد عائداً على أسرته الصغيرة : زوجته ، وأولاده ، وأمه ، وأبيه . وقد تتسع دائرته لتشمل ذوى رحمه . ولكنه في إخلاصه سيكسب لنفسه رزقه ، وثوابه من الله ، وسيعود خيراً ذلك على المجتمع إنتاجاً وإيجابية . . مثل ذلك يقال عن الجندى الذى تعلم كيف يحمى أمته من أى خطر يصيبها — وما أكثر الأخطار التى تتعرض لها أمتنا — فعليه أن يظل محافظاً على مستواه في القدرة على الدفاع عن وطنه ، فإذا ما هبط هذا المستوى كان ذلك كفراناً بِنعمة الله تعالى .

وطلب العلم — عمله — كله — ما دام مخلصاً — فهو في سبيل الله . .

(١) السيوطي : الجامع الصغير ، راجع الصفحات من ١٥٨ - ١٨٣ ج ٢ وفيها باقية من أحاديث الرسول تبدأ بكلمة « من » وتعطى صوراً متنوعة من الربط بين الدين والحياة والعمل على خدمة المجتمع .

ثم إذا ما قام إنسان بدعوة خير وبذل فيها الجهد ، كان له ثواب من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، أما من دعا إلى ضلالة فعليه وزر من تبعوه ، دون أن ينقص ذلك من آثامهم شيئاً .

في هذه المجموعة من الأحاديث التي أوردناها نماذج من ثروة علمية وحضارية ضخمة ، وأمانة أعطانا إياها رسولنا عليه الصلاة والسلام ، يلتقى فيها طلب العلم ، بالجهاد في سبيل الله ، بالمرابطة على ثغور أوطاننا ، بالتعاون على الإنتاج وبذل الجهد فيه ، ورد شرور الماء والنيران عنه .

فإذا ما أقامت أمتنا من السدود ما تحول به دون طغيان الماء ، وحفظت نفسها من الشر ، وإذا ما عملت في الاستفادة من ثرواتها ، كان للعاملين في مشروعاتها أجر الشهداء ، ما ابتغوا بذلك العمل الخير ، وجعلوه لصالح المجموع دون تفرقة أو تمييز .

في ظل هذا الشمول يمكن أن تلتقى جهود أبناء الأمة جميعاً : تلتقى جهود العمال بالفلاحين بالجنود بالمتقنين ورجال العلم ورجال المال ، دون أن يكون الجهد أو المال وسيلة من وسائل الاستغلال والطغيان . وترتفع منزلة العلم والعمل فتصبح لصاحبها شرفاً ، وتهبط منازل التعطل والتبطل والترف ، الذي ما ذكره ربنا في كتابه العزيز إلا في مقام

الذم وتحذير الأمة من شروره : «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ» وما كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

مصلحون ؟ [هود : ١١٦ - ١١٧] .

٥ - الإيمان يجمع ويفرق

وكما أن الإيمان الشامل يجمع بين العاملين من أجله ، مع تعدد مجالات عملهم ، فإنه لا يقبل في صفوفه إلا المخلصين له ، والسائرين على هديه . . والأمثلة عميقة من قصة إبراهيم عليه السلام :

فطريق الإيمان - بطبيعته - محفوف بالمشقة ، طريق شاق يحتاج إلى عزمات الرجال ، وصلابة العود ، والصبر الطويل ، والقدرة على الكفاح من أجل الحق ، وامتنال أمر الله في المشط والمكره .

إبراهيم عليه السلام ينشأ فيجد القوم من حوله على الكفر ، وتدركه عناية الله وتوجيهه ، ويقص علينا ربنا في كتابه قصة الاهتداء لتكون لنا نوراً تتحرك به العقول إلى معرفة الله والإيمان به :

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون

من المؤمنين * فلما جن عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال :

هذا ربى . فلما أفل ، قال : لا أحب الأفلين * فلما رأى

القمر بازغاً ، قال : هذا ربى . فلما أفل ، قال : لئن

لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس

بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر . فلما أفلت ، قال :

يا قوم إني برىء مما تشركون * إني وجهت وجهى للذى

فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .
[الأنعام : ٧٥ - ٧٩] .

وهنا تبدأ الخصومة بينه وبين قومه ، خصومة تصل إلى المفاصلة والمفارقة . وإبراهيم ثابت على إيمانه لا يتزعزع ، وقومه جامدون على أوثانهم ، وليس لهم من سنة إلا ما وجدوا عليه آباءهم ، ولو كان الباطل . ويخاطبهم إبراهيم قائلا :

« أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا . وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا . أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَوَيْلٌ لِلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . »
[الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

وتأتي التجربة العميقة حين يفرق الإيمان بين الأب وولده ، الأب نائر على ولده الذي آمن بالله وكفر بالأوثان . والابن ثابت على إيمانه وطهارة قلبه ولسانه . الأب يهدد ويتوعد بالرجم والإخراج من البلدة ، والابن لا يملك إلا كلمة السلام على لسانه ، والمغفرة والرحمة في قلبه . ويسجل الله تعالى هذا حواراً في آيات كريمة :

« قَالَ : أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَمَّا لَمْ

تَنْتَهُ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ ،
 سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ
 وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي ، عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ
 رَبِّي شَقِيًّا » . [مريم : ٤٦ - ٤٨] .

هذا مع أن تقديم إبراهيم دعوة الإيمان إلى أبيه كان نموذجاً في الدعوة
 إلى الله : جمع فيها بين الأدلة العقلية وما أوحاه إليه ربه ، وحذر أباه من
 عصيان أمر الله وإطاعته الشيطان ، وناجاه بالقول الذي يمس القلب . .
 ولنسمع معاً قول الله تعالى على لسان إبراهيم إذ قال لأبيه :

« يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي
 عَنْكَ شَيْئاً *

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي
 أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا *

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 عَصِيًّا *

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ،
 فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » [مريم : ٤٢ - ٤٥]

أربع مرات يخاطبه إبراهيم بقوله . . يا أبت ، بكل ما تحمل من
حسان وبر . في حين يخاطبه أبوه بقوله أرغب أنت عن آختي يا إبراهيم . .
دون أن يقول يا بني !!

ويهجّر إبراهيم أباه بعد أن أنذره الأب بالإخراج والرجم أو العودة
إلى الأوثان .

وظل على الوفاء الحميل يذكر أباه مستغفراً حتى ينزل أمر الله :

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ : وَعَدَهَا
إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » . [التوبة : ١١٤] .

فكما جمع الإيمان بين إبراهيم وولده إسماعيل ، فرق الإيمان بين
إبراهيم وأبيه آزر . وإذا كان الإيمان بطبيعته يجمع قلوباً وصفوفاً ، فهو
بطبيعته أيضاً يميز بين العاملين للخير والعاملين للشر .

ونستطيع أن نتصور الألم الكبير الذي حمله إبراهيم بين جنبيه ، وهو
يخرج من موطنه في العراق ، مهاجراً إلى الشام ، وقد ترك وراءه أباً لم
يستطع إبراهيم هدايته وأمر الله بين يديه واضح . . ألا يستغفر لذلك
الأب لأنه عدو لله . . فكأن الإيمان الذي يحمله إبراهيم إلى قلوب
الناس ، لا يستطيع أن يحمله إلى أقرب الناس إليه . . إلى أبيه : « إِنَّكَ
لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ » . [القصص : ٥٦] .

ألا نجد في هذا عزاء حين نرى بعض من نرجو لهم الخير ، يتبعون

غير سبيل المؤمنين ؟ ولكن أمر الله أنى بالانساج . . وإذا كنا نتصور في موقف آزر ، أن مكانته كأب حجت عنه — استكباراً — الانساج إلى الحق من ولده ، فإن القرآن أعطانا النموذج المقابل حين رفض ابن نوح أن يسمع إلى صوت الإيمان من أبيه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وكما يفرق الإيمان بين الأب وولده ، فإنه يفرق أحياناً بين المرء وزوجه : والنموذجان موجودان في القرآن :

امرأة مؤمنة مع زوج كافر في قصة فرعون وموسى . ورجل مؤمن مع زوجة غير مؤمنة في قصتي نوح ولوط .

لا يمكن إذن أن نتصور صف المؤمنين مجتمعاً إلا على أساس من الإيمان الواضح السليم . الإيمان الذى يعبر عن نفسه تعبيراً شاملاً في أمر الحياة جميعاً ، دون أن يكتفى منها بكلمات يرددها اللسان ، وليس لها رصيد من العمل والجهد الدائب ، الذى يعود خيره على الفرد والمجتمع .

٦ - الفداء

وتأتى قصة الفداء بروعتها حينما جمع الإيمان بين إبراهيم وإسماعيل وهاجر .

وأسكن إبراهيم من ذريته بواد غير ذى زرع :

«وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنْ

الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ :

يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟

قال : يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرُ ستَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فلَمَّا أَسْلَمَا وتَلَّه للجبينِ * ونَادَيْنَاهُ : أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وترَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » [الصافات : ٩٩ - ١١٣]
وفي هذه الآيات أكثر من وقفة :

١ - فإسماعيل جاء أولاً ثمرة دعوة طاهرة من قلب إبراهيم ، عندما ناجى ربه : رب هب لي من الصالحين .

٢ - ثم إن إسماعيل في قصة الفداء كان قد بلغ السعي . . أى أنه لم يكن طفلاً صغيراً لا يقدر مسئولية العمل . يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : « فلما بلغ معه السعي ، أى كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : شب وارتحل وأطاق ما كان يفعله أبوه من السعي والعمل » (١) . فلم تكن التضحية إذن بغلام لا يتحمل مسئولية أو دون سن التكليف ، وإنما لشاب يستطيع

أن يتحمل المسؤولية الكاملة لما يتخذه من قرار يتعلق بشأنه . . وإن كان متعلقاً بالموت والحياة أمثالاً لأمر الله .

٣ - الحوار إذاً بين إبراهيم وإسماعيل كان بين أب وولده لكل منهما مسؤوليته الخاصة التي سيسألها الله عنها . إسماعيل يؤمن بنبوّة أبيه . ويحبه في نفس الوقت . وإبراهيم كان منه التخيير لولده لا الأمر « فانظر ماذا ترى » وكان إسماعيل - لو أراد - يملك الرفض . فهو بهذا لم يكن مغلوباً على أمره أمام أبيه ، وإنما تحققت فيه غاية التسليم لله تعالى في هذا الموقف . ومما يؤكد أن المحنة كانت للأب والابن ، وأن وطأتها كانت مشتركة بينهما ، قول الله تعالى في وصف الموقف : « فلما أسلما وتله للجبين » : أسلم الأب أمثالاً لأمر الله ، وأسلم الولد طواعية ممثلاً لأمر الله . الأب يجد الأمر الإلهي بذبح وحيدته إسماعيل ، بعد أن جاءه على شوق للولد ، وأمنيته أن يخرج من ذريته أمة مسلمة لله . والابن يسمع الأمر الإلهي لأبيه فيصدق أمر الوحي ، ولو كان القتل على يد أحب الناس إليه . . أبيه وأبي المسلمين جميعاً .

من هنا نستطيع أن ندرك العمق العميق في قول الله تعالى : « إن هذا هو البلاء المبين » ولننظر في أدوات التأكيد المتعددة في الآية . . « إن » و « اللام » في « هو » ، ثم « المبين » وصفاً للبلاء .

ونرى في الآيات صوراً نابضة بالحياة للأوصاف التي وصف الله بها خليله إبراهيم : من الإسلام والصبر والتصديق والإحسان والإيمان ، وكيف انتهى هذا كله بسلام عليه وعلى آله إلى يوم القيامة ، يتلوه كل مسلم في صلاته في اليوم مرات ومرات .

٤ - وإذا كان إبراهيم قد اختبره الله في ولده ، فقد اختبره في نفسه من قبل : حين وقف وحيداً أمام قومه وحطم أصنامهم وأقبل قومه قائلين : « ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » فَأَرَادُوا بِهِ

كَيِّدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ » [الصفافات ٩٧ - ٩٨] .
وجعل الله النار عليه برداً وسلاماً .

٧ - الرمي

وإذا كان من مناسكتنا في الحج رمى الجمرات ، فنحن نذكر المواطن
الثلاثة التي تعرض فيها الشيطان لأفراد الأسرة المؤمنة :

- ١ - تعرض مرة لإبراهيم يحاول أن يصرفه عن تنفيذ أمر الله .
- ٢ - وتعرض ثانية لإسماعيل يحببه في الحياة ، ويصرفه عن طاعة أبيه .
- ٣ - وتعرض ثالثة لأمتنا هاجر يهول لها المصاب - وهو جليل - لتحول
دون تنفيذ أمر الله .

وكانت الإجابة واحدة : حصيات ، يرمون بها الشيطان . وتشارك
الأسرة المؤمنة في موقف الإيمان الواحد ، وتضرب عدواً واحداً يستوى
في هذا الرجل والشاب والمرأة .

الرمي بهذا هو التعبير عن الصف المؤمن : صف الرجال والشباب
والنساء حين يجمعهم الإيمان ، فيتحركون بأمره مهاجمين عدوهم
المشترك . . لقد تجلى في إبرة إبراهيم المؤمنة وحدة صفها ، ووحدة هدفها ،
ووحدة عملها ، في هذا المشهد المبين ؛ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من
تقوى القلوب .

٨ - الطواف والسعى

وإذا كانت حكمة الرمي تعبيراً عن كراهية الشر والشيطان ، فإن حكمة الطواف تعبير عن الخير والحب ، حين تتحرك الجموع تدور حول بيت ربها ، تستلم الركن أو تشير إليه مكبرة داعية . وإذا كان في ركن البيت حجر يقبله الحاج ، أو يشير إليه في حب وإكبار ، ففي منى ثلاثة أحجار يرجمها الحاج .

والإيمان أن تحب لله ، وأن تبغض لله .

ونرى هذه الحركة المنتظمة أيضاً في السعى بين الصفا والمروة . ونذكر في هذا السعى أمنا هاجر باحثاً عن الماء لصغيرها حتى نبع الماء عند قدميه .

فإذا كان السعى يمثل الحركة المؤمنة المنطلقة إلى هدف .

فإن الطواف يمثل الحركة المؤمنة المعبرة عن الحب .

ورمي الجمرات هو الحركة المؤمنة المعبرة عن كراهية الشر .

وهذا كله في مساواة يلتقي فيها أبناء الإسلام جميعاً ، وقد خرجوا من ثياب الزينة التي يتفاخرون بها ، ويتميز بها بعضهم عن بعض ، وهرعوا إلى ربهم حاسري الرؤوس ، لا يدفعهم إلى بيت ربهم إلا الإسلام له ، والاستجابة لدعوته .

٩ - المدن الثلاث

ويلخص لنا ربنا في الحج قصة الحياة كلها في هذه المدن أو المواضع التي نعيمها بعض الوقت ثم نمضي :

١ - فإذا كان يوم التروية - السابق ليوم عرفة - أخذت جموع الحجاج تدفع من مكة إلى منى ، ومنها إلى عرفات ، وترى حولك مدينة كاملة قائمة بنخيلها وأسواقها وإدارتها وهدفها . . وتظل المدينة عامرة حتى إذا غربت الشمس دفع الحجاج منها إلى المشعر الحرام . . ويستطيع الحاج أن يصل إلى عرفة في أى وقت قبل غروب الشمس . ولكن عليه أن يبقى حتى الغروب ، ومن بعده الإفاضة . فهنا - في عرفات - مدينة نعيمها نهراً .

٢ - وفي المشعر الحرام - المزدلفة - نرى مدينة أخرى نعيمها ليلاً ، لم تكن قائمة يوم عرفة ، ولن تبقى في يوم النحر . ونرى الآلاف المؤلفة وقد سكنت جوانب الطريق تصلى المغرب والعشاء ، وتجمع حصبات الرمي ، وتدعور بها ، ثم تنهأ بعد هذا للإفاضة إلى منى . . فهنا - في المزدلفة - مدينة نعيمها ليلاً .

٣ - إذا جئنا منى ، صبيحة يوم النحر ، وجدنا مدينة نعيمها أياماً . . ليلاً ونهاراً ، تؤدى فيها مناسك النحر والحلق والرمي . وندع ثياب الإحرام إلى ثياب الحل . فهنا - في منى - مدينة نعيمها ليلاً ونهاراً . . أياماً معدودات .

فإذا ما أمرنا ربنا بأن نعيم مكاناً ليلاً عمرناه ، أو نهاراً عمرناه ،

وإذا ما أمرنا أن نقيم فيه الليل والنهار أياماً ، امثلنا أمر ربنا في الإقامة والارتحال .

مدن تقوم وتنهى ، تذكرنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام : « الدنيا سوق قامت ثم انقضت ، ربح فيها من ربح وخسر فيها من خسر » .
وفي حركتنا بين هذه المواطن نحس أعمق الإحساس أن القائد الأكبر في الحركة كلها هو الإيمان .

ذلك لأن هذه الآلاف المؤلفة ، التي تتحرك في اتجاه واحد نحو عرفات ، ثم منها إلى المشعر الحرام ، ثم إلى منى ؛ لا يجمعها أمر واحد إلا الإيمان . هم من شعوب تختلف ألسنتهم وقدراتهم . ومراحل من متعددة من الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة . فيهم الرجال والنساء . وسائل مواصلاتهم متعددة . بطيئة وسريعة . من الذي يسعى على قدميه ، إلى راكب الدابة ، إلى راكب السيارة .. آلاف وراء آلاف يدفعهم الإيمان إلى الحركة ، ويأمرهم بالتوقف . يأمرهم بالحركة ليلاً أو نهاراً ، فيجد منهم جميعاً الامتثال والطاعة .

نموذج يرينا ماذا يصنع الإيمان في النفوس ، وكيف يستطيع أن يربط بينها برباط من التقوى - وهي خير زاد - ويحركها نحو أهدافها في وحدة ، وعرض هائل يتكرر كل عام عبر القرون . . .

وبعد : فهذه بعض عبر الحج وقصة إبراهيم عليه السلام ، أوحىها إلى النفس أيام قضيتها في جوار البيت العتيق .